المحاضرة - 14 - الرابعة عشرة

الأدب الجزائري في بلاد المشرق والأندلس

عناصر الدرس

1- مدخل
2- أثر الأدب الجزائري القديم في **العراق** (بكر بن حماد)
3- أثر الأدب الجزائري القديم في **بلاد الشام** (الشاب الظريف)
4- أثر الأدب الجزائري القديم في **صقلية** (ابن قاضي ميلة)
5- أثر الأدب الجزائري القديم في **الأندلس** (ابن خميس التلمساني)
6- النتائج العامة

1- مدخل:

لم تكن الحواضر العلمية الجزائرية القديمة، الممثلة في تيهرت و ورقلة وبجاية والمسيلة وتلمسان والجزائر وتوات والزيبان وقسنطينة وبونة وطبنة، وميلة.. مجرد مراكز إشعاع علمي محلية بل امتد إشعاعها عبر بلدان إفريقيا. لقد كان لتلك الحواضر الجزائرية دور في نشر العلوم عبر القارة الإفريقية والأندلس والمغرب وحتى المشرق. وذلك بهجرة العلوم عن طريق الطلبة الوافدين على الحواضر العلمية الجزائرية، وعن طريق هجرة العلماء والفقهاء والأدباء الجزائريين، وعن طريق التجار.

ولا تزال إلى اليوم بصمات ذلك التفاعل الإيجابي بين الجزائر وعديد البلدان ماثلة، تشهد عليها الحوادث التاريخية والآثار الأدبية في التاريخ الثقافي للجزائر. وتأتي هذه المحاضرة لتلقي أضواء على أدبنا وأدبائنا المهجريين الجزائريين القدامى، ذلك لأنهم شكلوا ظاهرة أدبية مميزة، تستحق أن نخصص لها درسا خاصا. فما من دويلة في المغرب أو المشرق أو الأندلس إلا وكان للمثقف الجزائري فضل مشاركة فيها، وإنْ تفاوتت تأثيراتهم في المجالين السياسي والثقافي.

2- أثر الأدب الجزائري القديم في العراق (بكر بن حماد):

- كانت بلاد المشرق العربي قبلة الجزائريين، وحلمهم المنشود، فمن المشرق العربي حلَّ عليهم نورُ الإسلام، وهناك منبع الإسلام، ومكان الحج. فلا عجب إنْ تمثّل الجزائريون القدامى المشارقةَ قدوةً لهم، واتخذوهم أساتذةً في مرحلة التعريب الأولى وتعلُّم مبادئ الإسلام. وبعد مرحلة التقليد تظهر الشخصية الأدبية الجزائرية مميزة، في العهد العباسي ممثّلة في الشاعر والمحدث والصوفي بكر بن حماد التاهرتي.

- ترجمة الشاعر بكر بن حماد: هو بكر بن حماد بن سهل بن أبي إسماعيل الزناتي التاهرتي أبو عبد الرحمن، وقبيلته زناتة كانت من اعظم القبائل البربرية، وأكثرها رجالا، ولد الشاعر سنة 200 هـ / 815 م بتاهرت عاصمة الدولة الرستمية، وأخباره قليلة في كتب التراجم والطبقات[1].

- أطوار حياته: النشأة في تاهرت أمضى بكر بن حماد وقت طفولته ونشأته الأولى في مسقط رأسه تاهرت، حيث وجهه والده خلالها إلى حفظ القرآن الكريم وطلب العلم،

[1] - ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ص59.

وكان لهذا أن ظهرت عليه في مرحلة مبكرة أمارات النباهة، وتفتحت قريحته الشعرية في سن السابعة عشر[1].

- الرحلة إلى المشرق العربي: غادر الشاعر تاهرت متجها نحو الشرق في رحلة طلب العلم، فنزل أولا بالقيروان التي كانت حينها حاضرة من حواضر العلم والمعرفة، ثم أكمل طريقه وحطّ الرحال بالبصرة، التي كانت تعجُّ بالعلماء والشعراء والفقهاء والفالسفة.. وفي البصرة جلس تلميذا لمسدد بن مسرهد يأخذ عنه علم الحديث الشريف، كما أخذ أيضا علوم اللغة عن ابن الأعرابي، ليمضي بعدها متجها إلى بغداد التي فتحت له هي الأخرى مجالسها العلمية ونواديها الأدبية والشعرية فالتقى بأبي تمام وعلي بن الجهم ودعبل الخزاعي، واتصل بالخليفة المعتصم فمدحه وأخذ منه العطاء والجزاء[2].

- العودة والإقامة بالقيروان: عاد الشاعر مرة أخرى إلى القيروان سنة 239 هـ وجلس يسمع دروس العلم عن عون بن يوسف الخزاعي وسحنون بن سعد، ثم ما لبث أن انتقل إليه كرسي التدريس في الجامع الكبير بالقيروان، فالتلف حوله طلبة العلم من بلاد المغرب، وخلال إقامته بالقيروان اتصل بأمراء الدولة الأغلبية ومدحهم[3].

- وفاته: تاقت نفس الشاعر إلى تاهرت فقرر ترك القيروان سنة 295 هـ، وفي طريق عودته تعرض له عدد من اللصوص فجرحوه في يده وقتلوا ابنه عبد الرحمن الذي كان يرافقه، لكن الشاعر نجا وبلغ تاهرت وأقام بها سنة كاملة ثم توفي متأثرا بجراحه سنة 296 هـ/ 911 م، وكان تاريخ وفاته موافقا لسقوط الدولة الرستمية وزوالها[4]

- شعر بكر بن حماد: لم يجمع شعر بكر بن حماد قديما مما جعل الجزء الأكبر منه يتعرض للضياع، وما بقي من شعره في المصادر والمخطوطات جمعه محمد بن رمضان شاوش في ديوان وسمه "الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد" ومجموع ما عثر عليه جامع الديوان مائة وعشرة أبيات، مجموع القصائد خمسا وعدد المقطوعات أربعة عشر مقطوعة، وأطول قصائده تلك التي هجا بها عمران بن حطان وتقع في 16 ستة عشر بيتا.

الأ را الشعرية في ديوان بكر بن حماد:

- الزهد والوعظ: يمثل شعر الزهد والوعظ حيزا كبيرا من ديوان الشاعر، ونبوغه في هذا الغرض الشعري يعود بالدرجة الأولى لطبيعة تكوينه الديني القائم على حفظ القرآن الكريم في تاهرت، ورواية الحديث النبوي الشريف ودراسته في القيروان والبصرة. لقد تعددت الموضوعات التي دارت حولها زهديات بكر بن حماد، وأبرزها: التذكير بحقيقة الموت، والدعوة من خلال ذلك للحد من شهوات النفس وملذاتها، وفي هذا يقول[5]:

لقـــــد جمحـــــت نفســـــي فصـــــدت وأعرضـــــت
وقـــــد مرقـــــت نفســـــي فطـــــال مروقهـــــا

---

[1] - ينظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1984م، ج4، ص151.
[2] - ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، ص157.
[3] - ينظر: بكر بن حماد، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص53-54.
[4] - ينظر، عبد الله بن محمد أبو بكر المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش مراقبة محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ج2، ص21.
[5] - شاوش محمد بن رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي، ص78.

فيـــــا أســـــفي مـــــن جـــــنح ليـــــل يقودهـــــا
وضـــــــوء نهـــــــار لا يـــــــزال يســـــــوقها
إلـــــى مشـــــهد لا بـــــد لـــــي مـــــن شـــــهوده
ومـــــن جـــــزع للمـــــوت ســـــوف أذوقهـــــا

- الهجاء: يعد الهجاء من الأغراض الشعرية التي برع فيها بكر بن حماد، وبراعته وشهرته في هذا الغرض تتجلى من خلال الهجاء السياسي القائم على نوع من الحرب الكلامية، والجدل بين المتصارعين في مجالات الحكم والسياسة. لقد هجا بكر بن حماد الخليفة العباسي المعتصم، كما هجا دعبل الخزاعي، ولعل نونيته في هجاء عمران بن حطان إثر مدحه عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أشهر قصائده على الإطلاق، وهي تدخل في إطار الهجاء السياسي، يقول فيها[1]

قـــل لابـــن ملجـــم والأقـــدار غالبـــة هـــدمت ويلـــك للإســـلام أركانـــا
قتلـــت أفضـــل مـــن يمشـــي علـــى قـــدم وأول النـــاس إســـلاماً وإيمانـــا
وأعلـــم النـــاس بـــالقرآن ثـــم بمـــا ســـن الرســـول لنـــا شـــرعاً وتبيانـــا
صـــهر النَّبـــي ومـــولاه وناصـــره أضـــحت مناقبـــه نـــوراً وبرهانـــا
وكـــان منـــه علـــى رغـــم الحســـود لـــه مكـــان هـــارون مـــن موســـى بـــن عمرانـــا
ذكـــرت قاتلـــه والـــدمع منحـــدر فقلـــت: ســـبحان رب العـــرش ســـبحانا
إنـــي لأحســـبه مـــا كـــان مـــن بشـــر يخشـــى المعـــاد ولكـــن كـــان شـــيطانا
أشـــقى مـــراد إذا عـــدت قبائلهـــا وأخســـر النـــاس عنـــد الله ميزانـــا
كعـــاقر الناقـــة الأولـــى التـــي جلبـــت علـــى ثمـــود بـــأرض الحجـــر خســـرانا
قـــد كـــان يخبـــرهم أن ســـوف يخضـــبها قبـــل المنيـــة أزمانـــا فأزمانـــا
فـــلا عفـــا الله عنـــه مـــا تحملـــه ولا ســـقى قبـــر عمـــران بـــن حطانـــا
لقولـــه فـــي شـــقي ظـــل مجترمـــا ونـــال مـــا نالـــه ظلمـــاً وعـــدوانا
يـــا ضـــربة مـــن تقـــى مـــا أراد بهـــا إلا ليبلـــغ مـــن ذي العـــرش رضـــوانا
بـــل ضـــربة مـــن غـــوى أوردتـــه لظـــى فســـوف يلقـــى بهـــا الـــرحمن غضـــبانا
كأنـــه لـــم يـــرد قصـــداً بضـــربته إلا ليصـــلى عـــذاب الخلـــد نيرانـــا

ولم يعدم القول في المدح والوصف وإن كان قليلا، ولكنه أكثر في الرثاء بأنواعه: رثاء الذات والآخر والمكان.. ومن أجمل ما قيل في رثاء ابنه عبد الرحمن الذي قتل بين يديه، ودفنه وهو جرح في الطريق إلى تاهرت.

بكيـــتُ علَـــى الأحبّـــة إذا تولّـــوا ولـــو أنّـــي هلكـــت بكـــوا عليّـــا
فيـــا نســـلي بقـــاؤك كـــان ذخـــرا وفقـــدك قـــد كـــوى الأكبـــاد كيّـــا
كفـــى حزنـــا بـــأنّي منـــك خلـــو وأنّـــك ميـــت وبقيـــت حيّـــا
ولـــم أك آيســـا فيئســـت لمّـــا رميـــت التّـــرب فوقـــك مـــن يـــديّا
فليـــت الخلـــق إذا خلقـــوا أطـــاعوا وليتـــك لـــم تكـــن يـــا بكـــر شـــيّا
نســـرّ بأشـــهر تمضـــي ســـراعا وتطـــوى فـــي ليـــالهنّ طيّـــا
فـــلا تفـــرح بـــدنيا لـــيس تبقـــى ولا تأســـف عليهـــا يـــا بنيّـــا

[1] - شاوش محمد بن رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي، ص63.

فقـــد قطـــع البقـــاءَ غُـــروبُ شـــمس ومطلعهـــــا عليـــــا يـــــا أخيّـــــا
ولـــــيس الهـــــمّ يجلـــــوه نهـــــار تـــــدور لـــــه الفراقـــــد والثريّـــــا

- آراء النقاد في شعر بكر بن حماد:

- ✓ وقف النقاد والعلماء على شعر بكر بن حماد وقدروا شاعريته وبراعته رغم أن ما بلغ أيديهم من شعره شيء قليل.
- ✓ يقول عمر فروخ: "وهو شاعر مجيد متفنن في أبواب الشعر متين السبك، حسن الديباجة، سهل التراكيب فصيح الألفاظ، يجيد في القصائد الطوال والمقطعات"[1].
- ✓ أما شوقي ضيف فيقول عنه: "وهو استهلال مبكر في القرن الثالث الهجري لما ينتظر الجزائر في الشعر من مستقبل خصب"[2].
- ✓ وتحدث عنه أيضا مبارك الميلي فقال: "وكان نابغة في الأدب واشتهر بالشاعر، وله القصائد الطويلة الجيدة في الأغراض المختلفة"[3].
- ✓ إن كثرة استشهاد الأدباء بشعره خاصة في الزهد وقصيدته في هجاء عمران بن حطان يؤكد لنا مدى تأثر المشارقة بشعر هذا الرجل وأدبيته، ولو لم يكن كذلك لما زاحم فطاحل شعراء العصر العباسي ونافسهم وأثر في خلفائهم..
- ✓ لقد كان من المقربين عند المعتصم[4]، بل من المقدمين عنده، خاصة بعدما ردّ على دعبل الخزاعي[5] حينما هجا المعتصم بقوله:[6]

ملـــــوك بنـــــي العبـــــاس فـــــي الكتـــــب ســـــبعة
ولـــــم يأتنـــــا عـــــن ثـــــامن لهـــــم كتـــــب
كـــــذلك أهـــــل الكهـــــف فـــــي الكهـــــف ســـــبعة
كـــــرام إذا عـــــدوا وثـــــامنهم كلـــــب

---

[1] - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج4، ص152.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، ج10، ص162.

[3] - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص81.

[4] - "المعتصم العباسي (179 - 227 هـ = 795 - 841 م محمد بن هارون الرشيد بن المهدى ابن المنصور، أبو إسحاق، المعتصم بالله العباسي: خليفة من أعاظم خلفاء هذه الدولة. بويع بالخلافة سنة 218 هـ يوم وفاة أخيه المأمون، وبعهد منه، وكان بطرسوس. وعاد إلى بغداد بعد/ سبعة أسابيع (في السنة نفسها. وكان قوي الساعد، يكسر زند الرجل بين أصبعيه، ولا تعمل في جسمه الاسنان. وكره التعليم في صغره، فنشأ ضعيف القراءة يكاد يكون أميا. وهو فاتح عمورية Amorium من بلاد الروم الشرقية، في خبر مشهور. وهو باني مدينة سامرا (سنة 222 حين ضاقت بغداد بجنده. وهو أول من أضاف إلى اسمه اسم الله تعالى، من الخلفاء، فقيل (المعتصم بالله وكان لين العريكة رضي الخلق، اتسع ملكه جدا. وكان له سبعون ألف مملوك. خلافته 8 سنين و 8 أشهر، وخلف 8 بنين و 8 بنات، وعمره 48 سنة. توفى بسامراء. وكان أبيض أصهب حسن الجسم مربوعا طويل اللحية "
- الزركلي خير الدين، الأعلام، ج7، ص127-128.

[5] - "دعبل الخزاعي (148 - 246 هـ = 765 - 860 م دعبل بن علي بن رزين الخزاعي، أبو علي: شاعر هجاء. أصله من الكوفة. أقام ببغداد. له أخبار، وشعره جيد. وكان صديق البحتري. وصنف كتابا في (طبقات الشعراء. (... كان بذئ اللسان مولعا بالهجو والحط من أقدار الناس، وهجا الخلفاء - الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق - فمن دونهم، وطال عمره فكان يقول: لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك ! توفي ببلدة تدعى الطيب (بين واسط وخوزستان وكان طوالا ضخما أطروشا، له (ديوان شعر - ط جمع فيه بعض الأدباء ما بقي متفرقا من شعره ".
- الزركلي خير الدين، الأعلام، ج2، ص339.

[6] - ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، ص.154

ومـــــا أنـــــت عنـــــدي فـــــي الوفـــــاء ككلـــــبهم
لأنـــــك ذو ذنـــــب ومـــــا أذنـــــب الكلـــــب

فقد رد عليه بكر بن حماد قائلا[1]:

أيهجـــــو أميـــــر المـــــؤمنين ورهطـــــه
ويمشـــــي علـــــى الأرض العريضـــــة دعبـــــل؟
أمـــــا والـــــذي أرســـــى ثبيـــــرا مكانـــــه!
لقـ ـد كـــــادت الـــــدنيا لـــــذاك تزلـــــزل
ولكـــــن أميـــــر المـــــؤمنين بفضـــــله
يهـــــم فيعفـــــو، أو يقـــــول فيفعـــــل

✓ فعاتبه حبيب فيه وقال له: (قتلته، والله! يا بكر) فقال في قصيدته هذه طويلة[2]

وعـــــاتبني فيـــــه حبيـــــب وقـــــال لـــــي:
لســـــانك محـــــذور وســـــمك يقتـــــل
وأنـــــي، وأن صـــــرفت فـــــي الشـــــعر منطقـــــي
لأنصـــــف فيمـــــا قلـــــت فيـــــه وأعـــــدل

✓ وهناك من زعم أن دعبل لم يهج بشيء المعتصم، وإنما بكر بن حماد هو من لفق له بعدما نظمها. "وكان دعبل الخزاعي هجاء للملوك جسوراً على أعراضهم متحاملاً لا يبالي ما صنع حتى عرف بذلك واشتهر فصنع على لسانه بكر بن حماد الباهري ممن كان دعبل يؤذيه ويهاجيه أبياتاً يهجو فيها المعتصم..

3- أثر الأدب الجزائري القديم في بلاد الشام (الشاب الظريف):

الشاب الظريف[3]: هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان بن شمس الدين علي بن عبد الله بن علي بن يس العابدي التلمساني، ويلقب بالشاب الظريف. وهذا ما ذهب إليه شاكر هادي شكر وصلاح الدين الهواري في تحقيقهما لديوان الشاب الظريف.

سبب شهرته بالشاب الظريف: تعرض بعض النقاد والباحثين المحدثين لأسباب هذه الشهرة، مثل الدكتور محمود رزق سليم، الذي أرجع ذلك إلى رقة شعره وعذوبته، أما الدكتور أحمد أحمد بدوي فيرجع السبب لما فيه من لعب وخلاعة وبعض مجون بالإضافة إلى رقة شعره واستطراف خلطائه له، أما الدكتور شوقي ضيف فأشار إلى هذه الشهرة في معرض حديثه عن شعره فقال: "وتدل تمنياته في وضوح على خفة ظله وأنه رقيق رقة مفرطة مع الدماثة والظرف والتدله في الحب واتقاد جذوته في فؤاده ولكل ذلك سماه معاصروه بحق الشاب الظريف". ويذكر الدكتور عمر موسى باشا أن سبب التسمية يعود إلى ما عرف عنه من عبث ولعب وعشرة وانخلاع ومجون..

مولده ونشأته: ولد بالقاهرة في العاشر من جمادي الآخرة سنة إحدى وستين وستمائة، كان أبوه صوفياً بخانقاه سعيد السعداء، فوالده الأديب الصوفي الشيخ عفيف الدين التلمساني الكوفي المتوفى سنة 690 هـ وهو من أكبر شعراء التصوف باللغة العربية، خدم الدولة في

---

[1]- شاوش محمد بن رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي، ص70.

[2] - ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، ص154.

[3] - ينظر: الشاب الظريف محمد بن عفيف، الديوان، تقديم وشرح صلاح الدين الهواري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، 2004م، ص9-26.

عدة جهات تركها، وباشر استيفاء الخزانة بدمشق، له عدة تصنيفات، فقد كان شاعراً وناشراً، ومصنفاً، وكان الشاب الظريف وحيد والديه، وقد مكث في مصر طوال فترة عصر الصبا قبل أن ينتقل مع أبيه إلى دمشق فراراً من غزو التتار، فسكن جبل قاسيون واتخذه موطناً له، حيث عاش فيه الشطر الثاني من حياته، فتعرف على خلطائه من أهل دمشق، الذين قضى معهم أسعد أوقات عمره، حتى توفاه الله فيها في الرابع عشر من رجب سنة 688 هـ وهو في سن الشباب، ولم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره.

عصره: الشاب الظريف من شعراء العصر المملوكي، الذي بدأ سنة 648 هـ في مصر والشام، وانتهى بسيطرة الترك والعثمانيين عليهم سنة 923هـ، حيث عاش في بداية هذا العصر، وكان المجتمع حينها ينقسم طبقتين، طبقة حاكمة، تميزت بحياة الترف، والرفاهية، والعيش في قصور تتجمع فيها كل أسباب الترف والمتعة، وطبقة محكومة فرضت عليها الضرائب التي أرهقت كاهلهم، وزادت من فقرهم ومعاناتهم .

الحياة الفكرية والأدبية في العصر المملوكي: ازدهرت في عصر المماليك، حيث ساروا على نهج وخطى أسلافهم الفاطميين، فأقاموا المساجد والمعاهد وبرزت عدة مظاهر فكرية وأدبية مثل غزارة التأليف وضخامة عدد المؤلفي. وتنوعت المذاهب الشعرية في العصر المملوكي، فكان هناك الشعر التقليدي، وصنعة البديع، والشعر العامي، والألغاز والأحاجي، والمطارحات الشعرية، والمحاورات والمجاوبات، وغيرها من الفنون والأغراض.

دراسته وشيوخه: تتلمذ الشاب الظريف على يد أبيه عفيف الدين التلمساني، وقرأ كتاب المنهاج على مؤلفه الشيخ محيي الدين بن شرف النووي، ومن شيوخه أيضا المؤرخ ابن الأثير الحلبي، العالم والكاتب والأديب، والقاضي محيي الدين بن النحاس، فكان يحمل ثقافة واسعة، مكنته من أن يكون من أبرز شعراء عصره، على الرغم من قصر عمره، حفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه والحديث، لأن أباه كان متصوفاً شديد التصوف، ودرس علوم النحو والعروض والبلاغة والبديع والمنطق والفلسفة وعلم الكلام، ودرس الأدب وتأثر ببعض الشعراء كالمتنبي، وأبي تمام، والمعري وغيرهم.

آثاره الأدبية: للشاب الظريف ديوان شعر مشهور، طبع أكثر من طبعة، في أكثر من عاصمة عربية، وطبع بالحجر في القاهرة سنة 1227 هـ، وقد قام شاكر هادي شكر بتحقيق هذا الديوان وطبعه مرتين، الأولى سنة 1967م، والثانية سنة 1985م، والطبعة الثانية أفضل وأحسن بكثير من الأولى. وله في النثر خطبة تقليد وهي خطبة هزلية للتعيين في وظيفة، وعظ غير مهذب، مقامات العشاق، وله بعض الموشحات التي ذكرت في ديوانه، وهذا ما عرف عن أدب الشاب الظريف

وفاته: توفي الشاب الظريف في يوم الأربعاء، الرابع عشر من رجب، سنة ثمان وثمانين وستمائة ولم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، ودفن بمقابر الصوفية بدمشق بعد أن صلوا عليه بالجامع الأموي.

مختارات من أشعاره:

قال الشاب الظريف[1]:

لا تُخْــفِ مــا صَــنَعَتْ بِــكَ الأشْــواقُ واشْــرَحْ هَــوَاكَ فَكُلّنــا عُشَّــاقُ

[1] - الشاب الظريف محمد بن عفيف، الديوان، ص225-226.

قد كانَ يخفِي الحُبّ لو لا دمعكَ ال ... جَارِي وَلَولا قَلْبُكَ الخَفَّاقُ
فعَسَى يُعينُكَ مَنْ شَكَوْتَ لَهُ الهَوَى ... فِي حَمْلِهِ فالعَاشِقُون رِفَاقُ
لا تجزَعَنَّ فَلَسْتَ أوّلَ مُغْرَمٍ ... فَتَكَتْ بِهِ الوَجْنَاتُ والأَحْدَاقُ
واصبر على هجرِ الحَبيبِ فَرُبَّمَا ... عَادَ الوِصَالُ وللهوى أخلاقُ
كم ليلةٍ أسهرتُ أحداقي بِهَا ... مُلقىً وللأفْكَارِ بي إحْدَاقُ
يا رَبّ قَد بَعُدَ الذين أحِبُّهُمْ ... عَنِّي وَقَدْ أَلِفَ الرّفاقَ فِراقُ
واسودَّ حظّي عندهُم لَمَّا سَرى ... فِيهِ بِنَارِ صَبَابَتِي إحْرَاقُ
عربٌ رأيتُ أصَحَّ ميثاقٍ لهم ... أن لا يصِحَّ لديهم ميثاقُ
وَعَلى النّياقِ وفي الأكلّةِ مَعْرِضٌ ... فِيهِ نِفارٌ دائمٌ وَنِفاقُ
مَا نَاءَ إلاّ حَارَبَتْ أردافُهُ ... خَصْراً عَلَيْهِ مِنَ العُيونِ نِطَاقُ
تَرْنُو العُيُونُ إليهِ في إطْرَاقِهِ ... فَإذَا رَنَا فَلِكُلّهَا إطْرَاقُ

وله أيضا[1]:

لي من هواك بعيده وقريبه ... ولك الجمال بديعه وغريبه
يا من أعيد جماله بجلاله ... حذرا عليه من العيون تصيبه
إن لم تكن عيني فإنّك نورها ... أو لم تكن قلبي فأنت حبيبه
هل رحمة أو حرمة لمتيّم ... قد قلّ منك نصيره ونصيبه
ألف القصائد في هواك تغزّلا ... حتّى كأنّ بك النسيب نسيبه
هب لي فؤادا بالغرام تشِبُّه ... واستبق فوْدابالصدود تشيبه
لم تبق لي سرّا أقول تذيعه ... عنّي ولا قلب أقول تنيبه
كم ليلة قضّيتها متسهّدا ... والدمع يجرح مقلتي مسكوبه
والنجم أقرب من لقاك منالُه ... عندي وأبعد من رضاك مغيبه
والجوّ قد رقّت عليّ شماله ... وجفونه وشماله وجنوبه
هي مقلة سهم الفراق يصيبها ... ويسحّ وابل دمعها فيصوبه
وجوّى تضرّم جمره لولا ندى ... قاضى القضاة قضى علىّ لهيبه

مكانة الشاب الظريف الأدبية وأثره:

- ✓ قال صلاح الدين الصفدي: "شاعر مجيد ابن شاعر مجيد، وكان فيه لعب وعشرة وانخلاع ومجون"[2].
- ✓ وقال ابن تغري بردي: "كان شابا فاضلا ظريفا، وشعره في غاية الحسن والجودة، وديوان شعره مشهور بأيدي الناس"[3].
- ✓ وقال ابن كثير الدمشقي: "الشاعر المطبق"[4].

---

[1]- الشاب الظريف محمد بن عفيف، الديوان، ص55-56.

[2] - صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، دط، 2000م، ج3، ص109.

[3] - يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، دط، دتط، ج7، ص381.

[4] - ابن كثير إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، 1988 م، ج13، ص371.

- ✓ ونقل ابن شاكر الكتبي مقولة نسبها إلى ابن فضل الله العمري: " سيم سرى، ونعيم جرى، وطيف لا بل أخف موقعاً منه في الكرى، لم يأت إلا بما خف على القلوب، وبرئ من العيوب، رق شعره فكاد أن يشرب، ودق فلا غرو للقضب أن ترقص والحمام أن يطرب، ولزم طريقة دخل فيها لا استئذان، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان، وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتان بشعره وخاصة أهل دمشق فإنه بين غمائم حياضهم ربي، وفي كمائم رياضهم حبي، حتى تدفق نهره، وأينع زهره، وقد أدركت جماعة من خلطائه لا يرون عليه تفضيل شاعر، لا يروون له شعراً إلا وهم يعظمونه كالمشاعر، لا ينظرون له بيتاً إلا كالبيت، ولا يقدمون عليه سابقاً حتى لو قلت ولا امرأ القيس لما باليت، ومرت له ولهم بالحمى أوقات لم يبق من زمانها إلا تذكره، ولا من إحسانها إلا تشكره، وأكثر شعره لا بل كله رشيق الألفاظ، سهل على الحفاظ، لا يخلو من الألفاظ العامية، وما تحلو به المذاهب الكلامية، فلهذا علق بكل خاطر، وولع به كل ذاكر، وعاجله أجله فاخترم، وحرم أحباه لذة الحياة وحرم"[1].
- ✓ قال أحمد الإسكندراني: "هو طرفة هذا العصر، وشعره يدل على نبوغ موروث"[2].
- ✓ وقال احمد أمين: "والشاب الظريف شاعر غزل، خفيف الروح، أولع بالبديع كأهل زمانه، ولكنه استعمله في رقة وعذوبة"[3].
- ✓ وقال محمود سليم رزق: "والشاب الظريف ترك شعرا دلّ على ثقافة أدبية محمودة"[4].
- ✓ حكم البعض على الشاب الظريف بالانخلاع والمجون، لما ورد في ديوانه من مقطعات شعرية تجاوز فيها الشاعر الحد الذي يقف عنده التقي الورع، ولكن ما رمي به هو سمة عصره، موضته، ولعل ما رثى به والده، وما مدح به الرسول ﷺ ينزهه عن ذلك، كيف لا وهو ابن الرجل الصوفي الأول في زمانه..

4- أثر الأدب الجزائري القديم في صقلية (ابن قاضي ميلة)[5]: "هو أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة (ق4هـ، شاعر لسن مقتدر، يؤثر الاستعارة، ويكثر الزجر والعيافة، ويسلك طريق ابن أبي ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات. وله في الشعر قدم سابقة، ومجال متسع، وربما بلغ الإغراق والتعمق إلى فوق الواجب، وهو لهج بذلك مطالب له. صحب أباه إلى جزيرة صقلية. وكان مفخَّمًا حاذقا فعرف ثقة/ الدولة بسببه، واتصل لاتصاله به، فأوطن البلد، وصنع فيه قصيدته الفائية، وما أعلم لأحد في وزنها ورويها مثلها، فأجزل صلته، وقرَّب منزلته، وألحقه في أحد دواوينه الخاصة".

خير ممثل للأدب الجزائري القديم في صقلية، أبو عبد الله بن قاضي ميلة. فمن يكون هذا الشاعر؟ وما خبره؟ وما أثره؟.. لقد أنجبت ميلة من العظماء، في القديم والحديث، ما يحق لها أن تفخر بهم، ما تعاقب عليها الجديدان، وأطل عليها القمران، ولست ذاكرا في هذا

---

[1] - محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1974م، ج3، 372-373.

[2] - أحمد الإسكندراني، المفصل في تاريخ الأدب العربي، المطبعة الأميرية بالقاهرة، مصر، دط، 1946م، ج2، ص190.

[3] - أحمد أمين وآخر، قصة الأدب في العالم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، دط، 1945، ج2، ص469.

[4] - محمود سليم رزق، عصر سلاطين المماليك، المطبعة النموذجية، مصر، ط2، دتط، ج8، ص141.

[5] - ابن رشيق القيرواني حسن، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح محمد العروسي المطوي وآخر، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1986، ص209-210.

المقال غير واحد، وإني لمن سواه من العظماء غير جاحد، ولكن المقام يفترض قصر المقال، فأسطره محدودة، وكلماته معدودة، وإنَّ الشخصية الواحدة من أهل هذه البلدة الطيبة، أكبر مِن أنْ تحيط به مكتبة. إنه عبد الله بن قاضي ميلة "وكل ما نعلم عنه أنه كان معاصرا لابن رشيق القيرواني وأنه دخل صقلية ومدح أميرها ثقة الدولة الكلبي[1]، في عيد النحر بقصيدة بديعة"[2] طويلة ذكرها ابن خلكان كاملة، ولم يذكرها سواه كاملة، وتبلغ تلك القصيدة الفائية

وإننا لنجد ابن قاضي ميلة يملأ ذكره بطون كتب الأدب واللغة والتاريخ على السواء؛ فشخصيته حاضرة في كل مقام، فهو عند الملوك محبب مفضل، وإن احترف الأدب مهنة، فهو أهل لها، ويمكننا أن نعتبره شاعرا مهجريا قديما، هجر ميلة، وقصد صقلية للاسترزاق، وقد عاد إلى بلده بعدما حقق أمنيته، فهجرته إنما هي "هجرة الشاعر العابر المتكسب الذي يتخذ من صقلية منتجعاً أو موطئ قدم، حتى إذا وجد طلبته، أو أخفق في العثور عليها، فارق البلد عائداً إلى وطنه"[3].

قال ابن رشيق القيرواني في الأنموذج مبينا مكانة ابن قاضي ميلة في الأدب، وأسلوبه، ومنهجه: "شاعرٌ لسنٌ مقتدر يُؤثر الِاسْتِعَارَة وَيكثر الزّجر والعيافة ويسلك طَرِيق ابْن أبي ربيعَة وَأَصْحَابه فِي نظم الْأَقْوَال والحكايات وَله فِي الشّعْر قدمٌ سابقةٌ ومجالٌ متَسعٌ وَرُبمَا بلغ الإغراق والتعمق إِلَى فَوق الْوَاجِب هُوَ لهجٌ بذلك مطالبٌ لَهُ صحب أَبَاهُ إِلَى جَزِيرَة صقيلة وَكَانَ مفخماً حاذقاً فَعرف ثِقَة الدولة بِسَبَبِهِ واتصل لاتصاله بِهِ فأوطن الْبَلَد وصنع فِيهِ قصيدته الفائية وَمَا أعلم لأحدٍ فِي وَزنهَا ورويها مثلهَا فأجزل صلته وَقرب مَنْزِلَته وألحقه فِي أحد دواوين الْخَاصَّة"[4]. ولابن قاضي ميلة حضور شعري في كل الأغراض المشهورة في زمانه، فهو عميد الشعر السلطاني بقصيدته الفائية في ثقة الدولة الكلبي والتي مطلعها[5]

يـــــذيل الهـــــوى دمعـــــي وقلبـــــي المعنـــــف
وتجنـــــي جفـــــوني الوجـــــد وهـــــو المكلـــــف
وإنـــــي ليـــــدعوني إلـــــى مـــــا شـــــنفته
وفارقـــــت مغنـــــاه الأغـــــن المشـــــنف
وأحـــــور ســـــاجي الطـــــرف أمـــــا وشـــــاحه
فصـــــفر وأمـــــا وقفـــــه فموقـــــف

---

[1] - " أَبو الفُتُوح الكَلْبي (000 - بعد 410 هـ = 000 - بعد 1020 م) يوسف بن عبد الله بن محمد، من آل أبي الحسين الكلبي، أبو الفتوح: من أمراء صقلّيّة في عهد الفاطميين " العبيديين " وكانت تابعة لهم. وليها بعد وفاة أبيه (سنة 379 هـ بعهد منه/ وجاءه " سجلّ " العزيز الفاطمي من مصر بالولاية ولقّبه " ثقة الدولة " وسعد أهل صقلّيّة في أيامه، ولم يتحرك في وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها. وأصيب بالفالج (سنة 388) فتعطل جانبه الأيسر، فسلّم الأمر إلى ابنه " جعفر " فثار على جعفر أخ له اسمه " علي " وظفر جعفر فقتل عليا، وأساء السيرة، فثار الصقليون (سنة 410) وحاصروا قصر الإمارة، فخرج إليهم أبو الفتوح (صاحب الترجمة) محمولا على محفة، فأقبلوا عليه يطلبون عزل جعفر وتولية ابنه الآخر " أحمد الأكحل "ففعل وسكنت الثورة. وأبعد جعفر إلى مصر، ثم لم يلبث أن لحق به".
- الزركلي خير الدين، الأعلام، ج8، ص239.

[2] - شاوش محمد بن رمضان وآخر، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج1، ص50.

[3] - إحسان عباس، العرب في صقلية - دراسة في التاريخ والأدب-، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1975، ص169.

[4] - ابن رشيق القيرواني حسن، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص209-210.

[5] - ابن خلكان أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دط، 1977، ج6، ص159.

وأكثر أهل البلاغة يستشهدون بهذه القصيدة في كتبهم على حسن الافتتاح وحسن الاختتام وحسن التخلص. وإن سألت عنه في الفلسفة، وجدته يجيب عن سؤال حيَّر شاعرَ الفلاسفة، وفيلسوف الشعراء أبا العلاء المعري؛ الذي أنشد من قصيدة يرثي بها الفقيه أبا حمزة فقال[1]

أبكـــتْ تلكـــم الحمامـــة أم غنَّـــت علـــى فـــرع غصـــنها الميَّـــاد

فأجابه ابن قاضي ميلة بقوله[2]

لقـــد عـــرض الحمـــام لنـــا بلحـــن إذا صـــغى لـــه ركـــب تلاحـــى
زهـــا قلـــب الخلـــيِّ فقـــال غنّـــى وبـــرَّح بالشـــجيِّ فقـــال ناحـــا

وللعلم فقد نَسَبَ بعضهم هذه الإجابة لغير ابن قاضي ميلة. وإذا طلبت الحكمة، ألفيت ابن قاضي ميلة، ينافس أبا العتاهية في أقواله[3].

لـــــدنياك نـــــور ولكنـــــه ظـــلام يحـــار بـــه المبصـــر
فـــإن عشـــت فيهـــا علـــى أنهـــا كمـــا قيـــل فنظـــرة تعبـــر
فـــلا تعمـــرن بهـــا منـــزلاً فـــإن الخـــراب لمـــا تعمـــر
ولا تـ ـذخرن خـــلاف التقـــى فتفنـــى ويبقـــى الـــذي تـــذخر

وهو في وصفه دقيق يرى ببصيرته وعينه الشاعرة ما لا يراه غيره؛ فاقرأ قوله وهو يصف مركبا للروم أوقع به المسلمون، ويذكر العلج[4]. وفي باب الرثاء تجده رقيقا، فإذا رثى بكى واستبكى. رثى مرة قريب صديقه القاضي بسبتة أبي الطيب سعد بن إبراهيم ، وقد مات غرقاً في البحر فقال[5]

فتـــى حملتـــه همـــةٌ نحـــو رحلـــةٍ بمهنـــؤةٍ مـــن غيـــر عـــارٍ بهـــا بـــدا
وقـــد كنـــت أستســـقي لـــه القطـــر دائمـــاً وأســـتودع الـــريح الســـلام المـــرددا
فكـــان الـــذي اســـتودعت أول خـــائن بـــه والـــذي استســـقيت مـــن أعظـــم العـــدا
فتـــى فـــاض بـــين المـ ـاء والـــريح روحـــه ومـــا زاره أهـــل ولا زار ملحـــدا

وفي غرض الغزل لم يعدم قولا كذلك، بل هو فيه أروع وأبدع، حتى وصفه ابن رشيق، بأنه: أشبه ما يكون بأسلوب عمر بن أبي ربيعة. ومن ذلك قوله[6]

قلـــتُ للحســـناء لمـــا أبْصَـــرت دمـــع عَيْنِـــي قـــد جَـــرى فيمـــا جَـــرى
لا تَظنّـــي الـــدّمع مـــا عَايَنْتِـــه أنـــا مـــن يُهِـــدي إليـــك الخَبَـــرا

---

[1] - شاوش محمد بن رمضان وآخر، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج1، ص54.
[2] - نفسه، ج1، ص54.
[3] - رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مجاني الأدب في حدائق العرب، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، لبنان، دط، 1913م، ج4، ص23.
[4] - ابن الصيرفي علي، المختار من شعر شعراء الأندلس، تحقيق عبد الرزاق حسين، دار البشير، عمان، ط1، 1985م، ص63.
[5] - عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1982م، ص123.
[6] - ابن رشيق القيرواني حسن، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص48.

جـالَ فـي خـدَّيك مـن مـاء الصَّـبى رونـــقٌ يَسْـــبي سَـــنـاَه البشـــرا
تأخـــذُ الأجفـــانُ منـــه رِيَّهَـــا فـــإذا جـــازَ التَنـــاهِي قَطَـــرا

ولربما بالغ في غزله أحيانا حتى قارب مجون أبي نواس؛ ومن ذلك قوله[1]

وتعجبنـــي الغصـــون إذا تثنـــت ولاســـيما وفـــيهن الثمـــار
إذا اهتـــزت نهـــود فـــي قـــدود فقـــل للحَلِـــمِ قـــد ذهـــب الوقـــار

5- أثر الأدب الجزائري القديم في الأندلس (ابن خميس التلمساني): من الأدباء الجزائريين الذين لمع نجمهم في بلاد الأندلس، وفي غرناطة خاصة. إنه ابِن خَمِيس (650 - 708 هـ = 1254 - 1309 م) محمد بن عمر بن محمد الحجري الرعينيّ، أبو عبد الله التلمساني، المعروف بابن خميس: شاعر، عالم بالعربية من أعيان تلمسان. كان يكتب عن ملوكها، ثم فر منهم، ومر بسبتة وغيرها، واستقر بغرناطة (سنة 703 هـ وتوفي بها قتيلا. مع صديقه ابن الحكيم، طبقته في الشعر عالية. له ديوان سمي (المنتخب النفيس في شعر ابن خميس ط)[2].

ظاهرة الإغراب في شعر ابن خميس التلمساني[3]:

- ✓ الإغراب اختيار أسلوبي التزمه ابن خميس ووظّفه توظيفا واعيا يتماشى مع السمات الفنية التي يريد أن يطبع بها خطابه الأدبي.
- ✓ إن ظاهرة الإغراب شكل فني وليس اختيار الألفاظ الغريبة عنده اختيارا عشوائيا وإنما هو نابع من وعي عميق بما تحمله من إيحاءات فنية، وما تنبض به من حياة يجعلها تشخص المعاني وتشع بالدلالات، فتغنيه عن استقصاء المعاني والصور.
- ✓ تقف اللفظة الغريبة لتدخل المتلقي في واقع شعري تهتز له مشاعره وتنفعل، فيندمج معه وجدانيا، وتتحول المفردة الغريبة عنده إلى مفردة مأنوسة تمكنه من معايشة الباث حياته الخاصة التي صنعتها بجرسها والتداعيات التي تثيرها.
- ✓ أدى اهتمامه بالمستوى الصوتي الإيقاعي إلى انتشار ظواهر صوتية وإيقاعية، تتمثل في التجنيس والمشاكلة والموازنة والترصيع وهي ظواهر فيما سمّاه محمد مفتاح بالمعادلة، وهذه الظواهر يوظفها ابن خميس لتحقق الانسجام الصوتي والإيقاعي.
- ✓ ويلجأ من أجل ذلك إلى اختيار الألفاظ الغريبة لتسهم في تشكيل البنية الصوتية الإيقاعية، وتضفي على الخطاب سمات خاصة تنسجم مع الجو النفسي والشعوري الذي يسيطر على النص.
- ✓ إن اختيار التركيب عند ابن خميس خاضع لاعتبارات شعورية ودلالية فهي تشكل، حسب الظروف النفسية التي تتزامن مع لحظة الكتابة، فتبدو للمتلقي غريبة ، ولكنه حين يدرسها داخل سياقها النفسي والشعوري تكشف عن جمالها الآسر، وقدرتها على تشخيص الدلالات وتحقيق التناسق الفني بين عناصر خطابه.

---

[1] - ابن بسام علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ط1، 1979، ج4، ص536.

[2] - خير الدين الزركلي، الأعلام، ج6، ص314.

[3] - سعد حمادة، جمالية الإغراب في الخطاب الشعري عند ابن خميس، مذكرة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2007-2008، ص85-86.

✓ تحمل الرموز الشعرية التقليدية التي كانت مستعملة في الشعر العربي القديم، كالليل والبرق.. مدلولات جديدة عند ابن خميس، تحديدها الحالة النفسية والشعورية.

✓ وظّف ابن خميس التراث الثقافي العربي والإسلامي، فتفاعل مع خطابه الشعري، في المتلقي في سياقات جديدة تبدو غريبة عن سياقها الأصلي، ولكن ما إن يبدأ عملية القراءة الفاحصة، والهادفة إلى استكشاف بنيته العميقة، تتفجر الدلالات، وتنكشف أمامه مدلولات الرموز.

✓ ونستطيع القول بأن الإغراب، في مختلف مستويات الخطاب الشعري عند ابن خميس، يعد مؤشرا دلاليا يكشف عن غربته ورغبته في اعتزال الناس والسمو عن أدران المجتمع.

- حائية ابن خميس في حنينه إلى تلمسان:

أطـــار فـــؤادي بـــرق ألاحـــا ... وقـــد ضـــمّ بعـــد لـــوكر جناحـــا
كـــأنّ تألّقـــه فـــي الـــدّجى ... حســـام جبـــان يهـــاب الكفاحـــا
أضـــاء وللعـــين إغفـــاءة ... تلـــذّ إذا مـــا ســـنا الفجـــر لاحـــا
كمعنـــى خفـــيّ بـــدا بعضـــه ... وزيـــد بيانـــا فـــزاد اتّضـــاحا
كـــأن النجـــوم وقـــد غربـــت ... نواهـــل مـــاء صـــدرن قماحـــا
لواغـــب باتـــت تجـــدّ السّـــرى ... فأدركهـــا الصـــبح روحـــي طلاحـــا
وقـــد لـــبس الليـــل أســـماله ... فمحّـــت عليـــه بـــلا وانصـــياحا
وأيقـــظ روض الرّبـــا زهـــره ... فحيّـــا نســـيم صـــباه الصّـــباحا
كـــأنّ النهـــار وقـــد غالهـــا ... مبيـــت مـــال حـــواه اجتياحـــا
أتـــى يســـتفيض دمـــوعي امتياحـــا ... ويلهـــب نـــار ضـــلوعي اقتـــداحا
فلـــم يلـــق دجـــن انتحـــابي شـــحيحا ... ولـــم يلـــف زنـــد اشـــتياقي شـــحاحا
ولـــولا توقّـــد نـــار الحشـــا ... لأنفـــدت مـــاء جفـــوني امتياحـــا
وممّـــا يشـــرّد عنـــي الكـــرى ... هـــديل حمـــام إذا نمـــت صـــاحا
ينـــوح علـــيّ وأبكـــي لـــه ... فـــأقطع ليلـــي بكـــا أو نياحـــا
أعـــين، أريحـــي أطلـــت الأســـى ... عليـــك ومـــا زدت إلّا انتزاحـــا
دعينـــي أرد مـــاء دمعـــي فلـــم ... أرد بعـــد مائـــك مـــاء قراحـــا
أحـــنّ إليـــك إذا ســـفت ريحـــا ... وأبكـــي عليـــك إذا ذقـــت راحـــا
وأفنـــى التياحـــا إليـــك وكـــم ... أشـــحت بـــوجهي عنـــك اتّشـــاحا
ولـــولا ســـخائم قـــوم أبـــوا ... إيـــابي ركبـــت إليـــك الرّياحـــا
أبـــاحوا حمـــاي وكـــم مـــرة ... حميـــت حمـــى عرضـــهم أن يباحـــا
ودافعـــت عـــنهم بشـــعري انتصـــارا ... فكـــان الجـــزاء جلائـــي المتاحـــا
أبـــاعوا ودادي بخســـا فســـل ... أكـــان ســـماحهم بـــي رباحـــا؟
وأغـــروا بنفســـي طلابهـــا ... ســـرارا فجـــاءوا لقتلـــي صـــراحا
وآلـــوا يمينـــا علـــى أنّ مـــا ... توهّمـــت لـــم يـــك إلّا مزاحـــا
فشـــاورت نفســـي فـــي ذا فمـــا ... رأت لـــي بغيـــر الفـــلاة فلاحـــا
فبـــتّ أنـــاغي نجـــوم الـــدّجى ... نجـــاء فلـــم ألـــق إلّا نجاحـــا
أجـــوب الـــدياجير وحـــدي ولا ... مـــؤانس إلّا القطـــا والسّـــراحا

وإلّا الثعالب تحتس في ... مبيتي فتملأ سمعي ضباحا
أجوز الأفاحيص فيحا قفارا ... وأعرو الأداحيّ غبرا فساحا
فأعيي شوارد هذي عداء ... وأعلو لواغي تلك صياحا
وجوّاب بدو إذا استنبحوا ... أجابوا عواء وأمّوا النّباحا
يرون قتالي في الحجر حلّا ... وإذهاب نفسي فيه مباحا
قصدت هناهم فلم أخطهم ... أعاجم شوس العيون قباحا
فسل كيف كان خلاصي من ... أسارهم أسرى أم سراحا؟
ولا مثل بيت تيمّمته ... فلم ألف إلّا الغنا والسّماحا
عيابا ملاء ونيبا سمانا ... وغيدا خدالا وعودا أقاحا
وإلّا أعاريب شمّ الأنوف ... كرام الجدود فصاحا صباحا
وإلّا يعافير سود العيون ... يرين فساد المحبّ صلاحا
يردّدن فينا لحاظا مراضا ... يمرّضن منّا القلوب الصّحاحا
وتحت الوجاح طلا ربرب ... لو أنّ القيان رفعن الوجاحا
أراني محاسن منه فلم ... أطق عن حماه بقلبي براحا
محيّا وسيما وفرعا أثيثا ... وقدّا قويما وردفا رداحا
وأبدى لعيني بدائع لم ... يدع لي عقلا بها حين راحا
إذا لم يرد غير سفك دمي ... فحلّ وبلّ له ما استباحا
وما زلت سمحا بنفسي كذا ... متى ما رأيت الوجوه الملاحا
وبابن رشيد تعوّذت من ... هواه فقد زدت فيه افتضاحا
وقد ضاق صدري عن كتمه ... وأودعته جفن عيني فباحا
وبابن رشيد تعوّذت من ... خطوب أجلن عليّ القداحا
ألحّ الزمان بأحداثه ... فألقيت طوعا إليه السّلاحا
أعاد شبابي مشيبا كما ... سمعت وصيّر نسكي طلاحا
وفرّق بيني وبين الأهيل ... ولم ير ذا عليه جناحا
أخي وسميّ، أصخ مسعدا ... لشجو حزين إليك استراحا
فقد جبّ ظهري على ضعفه ... كداما وأدهى شواتي نطاحا
وطوّح بي عن تلمسان ما ... ظننت فراقي لها أن يتاحا
وأعجل سيري عنه ولم ... يدعني أودّع تلك البطاحا
نأى بصديقك عن ربعه ... فكان له النّأي موتا صراحا
وكان عزيزا على قومه ... إذا هاج خاضوا إليه الرّماحا
فها هو إن قال لم يلتفت ... إليه امتهانا له واطّراحا
عجبت لدهري هذا وما ... ألاقي مساء به وصباحا
لقد هدّ منّي ركنا شديدا ... وذلّل منّي حياء لقاحا
وقيت الرّدى من أخ مخلص ... لو اسطعت طرت إليه ارتياحا
وإني على فيح ما بيننا ... لأتبع ذاك الشّذا حيث فاحا
أحنّ إليه حنين الفحول ... ونوح الحمام إذا هو ناحا
وأسأل عنه هبوب النّسيم ... وخفق الوميض إذا ما ألاحا

وإن شـــئت عرفـــان حـــالي ومـــا ... يعانيـــه جســـمي ضـــنى أو صـــحاحا
فقلـــب يـــذوب إليـــك اشـــتياقا ... وصـــدر يفـــاح إليـــك انشـــراحا
وغـــرس وداد أصـــاب فضـــاء ... نـــديّا وصـــادف أرضـــا براحـــا
كراســـــخ مجـــــد تأثّلتـــــه ... فلـــم تخـــش بعـــد عليـــه امتصـــاحا
وعليـــاء بوّئتهـــا لـــو بغـــى ... ســـموّا إليهـــا السّـــماك لطاحـــا
مكـــارم جمّعـــت أفـــذاذها ... فكانـــت لعطـــف عـــلاك وشـــاحا
ودرس علـــوم تهـــيم بهـــا ... عمـــرت الغـــدوّ بـــه والرّواحـــا
نشـــأت عـــن الخيـــر واعتدتـــه ... فلـــم تـــدر إلّا التّقـــى والصّـــلاحا
وقمـــت لهـــا أيّمـــا رحلـــة ... كســـحت المعـــارف فيهـــا اكتســـاحا
بهـــرت رجـــال الحـــديث اقتـــداء ... وفـــتّ رجـــال الكمـــال اقتراحـــا
فمـــا إن جلـــيس إذا قلـــت قـــال ... أو أنّ الخطيـــب إذا لحـــت لاحـــا
ولـــو لـــم تحـــجّ بهـــا مكـــة ... لحـــجّ الملائـــك عنـــك صـــراحا
وأمـــا أنـــا بعـــد نهـــي النّهـــى ... فمـــا زادنـــي الطّبـــع إلّا جماحـــا
أديـــر كـــؤوس هـــواي اغتباقـــا ... وأشـــرب مـــاء دمـــوعي اصـــطباحا
فبـــرّد جـــواي بـــردّ جـــواب ... تـــوبّخ فيـــه مشـــي الوقاحـــا
وهـــنّ بنيّـــات فكـــري وقـــد ... أتيتـــك فـــاخفض لهـــنّ الجناحـــا

6- النتائج العامة:

✓ اشتهر من الأدباء الجزائريين في العهد الرستمي بكر بن حماد. واشتهر في العهد الحمادي الحسن بن الفكون، وابن رشيق القيرواني. وفي العهد الموحدي لمع نجم كاتبين؛ هما: أبو القاسم القالمي وأبو الفضل بن طاهر بن محشرة. وفي العهد الزياني ابن خميس، والثغري، والتلالسي، والتنسي. وفي العهد العثماني نجد ابن ميمون، والراشدي، وأبا القاسم البوني.

✓ ومن الأدباء الجزائريين المشهورين الذين عاشوا خارج بلادهم: ابن محرز الوهراني الذي كان مبجلا في الدولة الأيوبية، وتقدم ابن أبي حجلة التلمساني في دولة المماليك واقترن اسمه باسمها. وترك المقري التلمساني آثاره في الدولة السعدية. وحفر ابن حمادوش اسمه في تاريخ الدولة العلوية حين مدح سلطانها عبد الله بن إسماعيل العلوي.

✓ من الأدباء الجزائريين من كان محترفا الأدب والسياسة معا ومصاحبا للسلطان، وفاعلا ومشاركا في القرارات السلطانية، مثل ابن مرزوق الخطيب، الذي عمل في بلاطات ثمانية ملوك، في فاس وتلمسان وغرناطة وتونس والقاهرة.

✓ ومنهم من كان متجولا متكسبا، يستغل المناسبات العامة، التي تفتح فيها أبواب السلاطين، ليلقي قصيدته، ويحاول إثبات جدارته، لينال مكافأته، كذلك الجزائري المجهول الذي ألقى قصيدته على قبر ابن تومرت، أمام السلطان الموحدي وكبار مشايخهم.

✓ لا زالت قائمة الأدباء الجزائريين المهجريين مفتوحة، وما ذكرناه على سبيل التمثيل لا الحصر.

✓ من أكثر الأغراض التي تناولها الأدباء الجزائريون في المهجر، المدح قصد التكسب؛ والهجاء. قال المقري التلمساني في هجاء المصريين[1]:

تَرَكْـتُ رُسُـومَ عِـزِّي فِـي بِـلادِي وأَصْـبَحْتُ بِمِصْـرَ مَنْسِـيَّ الرُّسُـومِ
و نَفْسِـي عِفْتُهَـا بِالـذّلِّ فِيهَـا وقُلْـتُ لَهَـا عَـنِ الْعَلْيَـاءِ صُـومِي
ولِـي عَـزْمٌ كَحَـدِّ السَّـيْفِ مَـاضٍ ولَكَـنَّ اللّيَـالِيَ مِـنْ خُصُـومِي

✓ أبدع **ابن محرز الوهراني**[2] لونا نثريا عرف بالمنامات، وأشهره المنام الكبير. وله كتابات نثرية بديعه، تميل إلى اللهو، والنقد الاجتماعي، والمذهب الواقعي. كتب الوهراني بأسلوب نثري مرسل، حاكى فيه كتاب القرن الرابع الهجري وسجع المقامات، ونأى به عن صنعة الهمذاني والقاضي الفاضل، فجاءت كتاباته عفوية؛ تتدفق بالحيوية. ولما كان ظريفا خفيف الروح، بارعا في الهزل والسخرية، مجيدا للتهكم والسخرية، فقد صبَّ سخريته على كبار علماء دمشق وفقهائها وأطبائها وكتابها كالتاج الكندي، والمهذب ابن النقاش، والقاضي الفاضل، والقاضي ضياء الدين الشهرزوري، والقاضي ابن أبي عصرون، وغيرهم.

ومن أجمل ما كتب الوهراني على لسان بغلته إلى الأمير عز الدين موسك فقال[3]:

" المملوكة ريحانة بغله الوهراني تقبل الأرض بين يدي المولى عز الدين ظهير أمين المؤمنين نجاه الله من حر السعير، وعطر ذكره قوافل العير، ورزقه من القرط والتبن والشعير، ما وسق مئة ألف بعير، واستجاب فيه أدعية الجم الغفير، من الخيل والبغال والحمير، وتنهي ما تقاسيه مواصلة الصيام وسوء القيام، والتعب بالليل والدواب نيام، وقد أشرفت المملوكة على التلف وصاحبها لا يحتمل الكلف، ولا يوقن بالخلف، ولا يقول بالعلف، لأنه في بيته مثل المسك والعبير، والطريف الكبير، أقل من الأمانة في الأقباط، ومن العقل في رأس قاضي سنباط، فشعيره أبعد من الشعرى العبور، لا وصول إليه ولا عبور، وقرطه أعز من قرط مارية، لا تخرجه صدقة ولا هبة ولا عارية، والتبن أحب إليه من الابن، والجلبان عنده أعز نم دهن البان، والقصيم أعز من الدر النظيم، والفصة أجمل من سنابك الفضة، وأما الفول فمن دونه ألف باب مقفول، وما يهون عليه أن يعلف الدواب، إلاّ بعيوب الآداب وفقه اللباب والسؤال والجواب، وما عند الله من الثواب، ومعلوم يا سيدي أن البهائم لا توصف بالحلوم، ولا تعيش بسماع العلوم، ولا تطرب بشعر أبي تمام، ولا تعرف الحارث بن همام، ولا سيما البغال، تشتغل في جميع الأشغال، سلة من القصيل، أحب إليها من كتاب البيان والتحصيل، وقفة من الدريس، أحب إليها من فقه محمد بن

---

[1] - أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص1.

[2] - الوَهْراني (000 - 575 هـ = 000 - 1179 م) محمد بن محرز بن محمد، أبو عبد الله الوهراني: منشئ، من أكابر الظرفاء. أصله من وهران (بقرب تلمسان) قدم الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين، فاجتمع فيها بالقاضي الفاضل والعماد الأصبهاني وغيرهما من أئمة الإنشاء. ولم يكن من طبقتهم، فعدل عن طريق الجد، وسلك مناهج الهزل، فأقبل الناس على أقواله ورسائله. ثم تنقل في بلاد الشام، وأقام في دمشق زمنا، وتولى الخطابة بداريا (من قراها) وتوفي فيها. له (الرسائل - خ) في تسعة كراريس، تعرف بمنشآت الوهراني، و (رقعة عن مساجد دمشق - ط) رسالة، و (المنامات - ط) قال ابن خلكان: لو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه، وزاد ابن قاضي شهبة: فإنه ما سبق إلى مثله.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج7، ص19.

[3] - الوهراني ابن محرز محمد، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط1، 1998، ص90-94.

إدريس، لو أكل البغل كتاب المقامات مات، ولو لم يجد إلاّ كتاب الرضاع ضاع، ولو قيل له أنت هالك، إن لم تأكل موطأ مالك، ما قبل ذلك، وكذلك الجمل، لا يتغذى بشرح أبيات الجمل، وحزمة من الكلا، أحب إليه من شعر أبي العلا. وليس عنده بطيب، شعر أبي الطيب، وأما الخيل فلا تطرب إلا لسماع الكيل. ولو أكلت كتاب الذيل. ماتت بالنهار قبل الليل، والويل لها ثم الويل، ولا تسغني الأكاديش عن أكل الحشيش، بما في الحماسة من شعر أبي الجريش، وإذا أطعمت الحمار شعر ابن عمار حل به الدمار، وأصبح منفوخاً كالطبل على باب الإصطبل، وبعد هذا كله فقد راح صاحبها إلى العلاف، وعرض عليه مسائل الخلاف، وطلب من تبنه خمس قفاف، فقام إليه بالخلاف، فخاطبه بالتقعير، وفسر عليه آية البعير، وطلب منه ويبة شعير، فحمل على عياله ألف بعير، وأكثر له من الشخير والنخير، فانصرف الشيخ مكسور القلب، مغتاظاً من السلب، وهو أنحس من ابن بنت الكلب، فالتفت إلى المسكينة، وقد سلبه الله ثوب السكينة، وقال لها: إن شئت أن تكدي فكدي، لا ذقت شعيراً ما دمت عندي، فبقيت المملوكة حائرة، لا قائمة ولا سائرة، فقال لها العلاف لا تجرعي من خباله، ولا تلتفتي إلى أسباله. ولا تنظري إلى نفقته، ولا يكون عندك أحسن من عنفقته، هذا الأمير عز الدين سيف المجاهدين أندى يداً من الغمام، وأبهى من البدر ليلة التمام، يرثي للمحروب ويفرج عن المكروب، ولا يرد قائلاً، ولا يخيب سائلاً، فلما سمعت المملوكة هذا الكلام، جذبت الزمام، ورفست الغلام، وقطعت الحزام، وفتحت اللجام، حتى طرحت خدها على الأقدام، ورأيك أعلى، والسلام.

- ✓ وكان ابن مرزوق الخطيب التلمساني أديبا جزائريا مهجريا ذاع صيته في السياسة والأدب والدهاء، وعمل كتابه المشهور في التراجم الغيرية "المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن"، إن كتاب المسند في ظاهره كتاب أدب مناقب، أما في باطنه فهو كتاب في الآداب السلطانية التي ينبغي أن يكون عليها الملك الناجح وفق رؤية ذلك العصر، وخبرات المؤلف وثقافته الواسعة. ألفه في مناقب السلطان المرني أبي الحسن. ومما نقتطفه منه[1]: "كان ﷺ لين الجانب، قليل العتاب، أسرع الناس قبولا للمعاذير، وإقامة الحجة، وقد قدمنا ما كان عليه من الحياء ﷺ ، والحياء هو الذي يبعث على قبول المعذرة، وكثرة الحشمة يمنع من الاستقصاء في البحث عن العثرة". ولا يقف ابن مرزوق في تزكية سلطانه عند حد الوصف، بل يحلل ذلك تحليلا علميا منطقيا مقنعا، فالعلاقة بين خصال موصوفه سببية متعدية. فالحياء يستلزم قبول المعاذير؛ وكثرة الحشمة تستلزم عدم البحث عن العثرة.
- ✓ ويأتي أحمد المقري التلمساني صاحب موسوعة نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وموسوعة أزهار الرياض في أخبار عياض، من بين خيرة الأدباء الموسوعيين المهجريين الجزائريين، وهو شاعر ومؤرخ أدبي، وحافظ..

[1] - ابن مرزوق الخطيب التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1981، ص319.